الفصل الثالث

قضايا الشعر والنقد

وبعد أن أرسى إليوت معالم التقاليد وصلتها بالتدرج التاريخى للموروث من التراث الماضى وبين لنا كيف أن الاستفادة من هذا التراث لاتتم إلا بالتفاعل معه على أساس موضوعى بحت ، وهذه الموضوعية هى التى أدت بدورها إلى تبلور مهمة الناقد حول تربية الذوق الفنى السليم ، كما أن ذلك لا يتأتى إلا بتحقيق المنهاج العلمى الذى يرتكز على أسس عملية تطبيقية . تعرض إليوت لعدة قضايا نقدية جمعها فى كتابه الذى أطلق عليه اسم الغابة المقدسة أو مقالات فى الشعر والنقد(١) .

لقد استهل هذا البحث بالحديث عن الحركة الانطباعية فى النقد وبين لنا عيوب هذه الحركة التى اقتصرت على إيجاد محاسن النصوص الأدبية بواسطة انطباعات الناقد التى هى وليدة الأثرة الشخصية . وغالباً ما تختلط بالميول والأهواء الفردية . مثل هذا النقد إرضاء لنزوات الناقد . وإشباع لمشاعره . وطرحٌ للفكرة الأصيلة . وبعدٌ عن التحليل المنطقى . فهو ناقص فى منهجه ومرماه . مبتور فى أسلوبه وطريقته ، غامض كل الغموض لاعتماده على المؤثرات الحسية . فلا غرو إن نتجت عن هذه الانطباعات آراء ملتوية لا تمت بأية صلة للإنتاج الفنى المراد تقييمه . فهو نقد يقوم على محض الصدفة . مبنى على إيجاد العلاقات الفردية واختلاق الروابط الشخصية . وتختلط مثل هذه الروابط عادة بعديد من الخبرات الذاتية التى تبعدنا عن المحيط الفنى وتزجنا داخل إطار شخصى لا فائدة ترجى من ورائه .

---

(١) *The Sacred Wood : Essays on Poetry and Criticism.*

ثم تعرض إليوت بعد ذلك للناقد المحترف الذى يحكم بالضعف أو القوة على إنتاج ما ، وهو فى تصلفه إنما يجزم بما يراه طبقاً لما يضعه من أحكام وما يذهب إليه من قوانين لا صلة لها بالعمل الفنى . فمثل هذه الفروض غالباً ما ترضى غروره وتشبع رغباته . وكثيراً ما أطيح بالنقد لجريه وراء الجدة ، وبحثه عن التعاليم الخلقية من وراء الأعمال الفنية . ولقد عانى النقد كثيراً من ميول بعض النقاد الذين حاولوا إيجاد الفروض والقضايا التى تخدم أغراضهم . وبدلاً من إبراز النقاط الهامة التى تستند إلى التحليل المنطقى الدقيق والتى كثيراً ما تغيب عن ذهن القارئ ، نجد مثل هؤلاء النقاد قد أجهدوا أنفسهم فى البحث وراء شخصية الكاتب أو الفنان .

إن النقد الصحيح يقوم على الإحساس بوجود اتجاهات عدة اجتماعية وتاريخية وفكرية وأيضاً ثقافية بمعناها العام . إنه شمول هذه الاتجاهات مجتمعة ، فهى تكمل بعضها بعضاً . ويضيف إليوت إلى كل ذلك سبل المعرفة والاطلاع الواسع والإلمام الشامل بالتيارات المختلفة ، فمن شأنها كلها أن تساعد الناقد على تقييم العمل الفنى بمقارنته بغيره ، وبتفهمه على حقيقته فى غير مغالاة ولا إسفاف . حينئذ تتضح لنا المتعة الفنية التى ننشدها من وراء الخلق المبدع . وتبرز لنا معالم الأعمال العظيمة التى أثرت خبراتنا ، والإنتاج الرائع الذى زودنا بحصيلة وفيرة وذخيرة غنية .

هذا فيما يتصل بالنقد أما فيما يختص بالشعر فلقد تعرض إليوت لمشكلة الشعر الفلسفى متخذاً الشاعر الإيطالى دانتى إليجييرى مثالاً له ، ففى « الكوميديا الإلهية » تلتحم الفلسفة بالنسيج الشعرى فتشد من خيوطه ، وتتداخل مع مكوناته ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من هذا التنسيق المبدع الذى يكوّن فى مجموعه ذلك الإنتاج الفنى العظيم . وهنا نلحظ تفاعل الفكرة الفلسفية مع الإحساس الشعرى فأثرته وأخصبته وتخللت كل عناصره قبل أن تمتزج بها جميعاً وتتحد معها كلها . وفى هذا الاتحاد إبراز لقيمها الجمالية التى تستمدها بطبيعة الحال من تماسك

الأجزاء المكونة لذلك البناء الشامخ .

وقديماً امتزج الشعر بالفلسفة كما فى مؤلفات بارمنيدس وأمبادوقليس ، إذ نجد أن الفكرة الفلسفية قد اختلطت بالقدرة على الإتيان بالوجدان الصادق . وهذا الاتجاه قد انعكس أيضاً على مؤلفات هيراقليطوس وزينون وإنكساجوراس . إلا أن الفضل الأكبر فى تقدم هذا الاتجاه يرجع إلى لوقريطيوس الذى مزج منهاجه الفلسفى بالصور الشعرية الأصيلة ، وحاول فى ثنايا عرضه لذلك المنهاج أن يبرز لنا المعالم الشعرية المحسوسة فى تطابقها مع الأفكار الفلسفية العميقة . إن هو إلا تطابق متكامل للقضايا الميتافيزيقية ، وتجسيم للرؤيا الخلاقة ، وتركيز للفكرة الفلسفية فى بؤرة شعورية تعتمد على الحدث بقدر اعتمادها على الشعور الصادق والتأمل الأمين . وهذا هو موطن الجدة فى منهاج لوقريطيوس وفى شعره الفلسفى وفى محاولاته العديدة للتعبير عن الحياة العادية للإنسان فى أسلوب أدبى رصين . ولقد ساعده على ذلك ميله الشديد إلى الملاحظة الدقيقة والتفكير المنطقى السليم .

ومع أن الشعر قد سار فى خط منفصل عن الفلسفة فى معظم الأحيان ، واعتمدت الفلسفة على الفكر المجرد فى الوقت الذى حاول فيه الشعر أن يوضح معالم هذا الفكر بمزجه بالقوى الفنية الخلاقة ، نجد فى تاريخ الأدب العالمى التحام الخطين فى الشعر الميتافيزيقى الذى لا يعتمد على الجدل بقدر استناده إلى الملاحظة التى تستمد قوتها من المشاهدة الفاحصة للمرئيات المختلفة . ويذهب إليوت إلى القول فى هذا الصدد إن الشعر لم يكن يوماً أصلاً للفلسفة . كما أنه لم يضع الشكل الأساسى لها ، فهى لا تستند إليه فى مراحل تطور الفكر أو فى تقلباته ، فالعكس هو الصحيح . فلقد غزت الفلسفة ميدان الشعر ، واقتحمت محيطه ، وذلك بعد أن تبلورت قضاياها ، ورسخت اتجاهاتها الفكرية ، وأصبحت فى متناول الكتاب والشعراء .

ومن هذا يتضح لنا أن دانتى قبل أن يقدم على كتابة كوميدياه العظيمة قد استفاد فائدة لا تقدر من الفلسفة التى سبقته فى العصور الوسيطة وأهمها فلسفة القديس توماس الإكوينى الإيطالى وألبيرتوس الألمانى وأبيلارد الفرنسى ورتشارد أوف سانت فيكتور الأسكتلندى . وهنا يؤكد لنا إليوت بأن أية محاولة لفصل هذه الفلسفة عن شعر دانتى فيها تجنى لا يغتفر على الشاعر الإيطالى : وفيها دحض لا مبرر له لفنه الأصيل . فلقد استفاد دانتى من هذه الفلسفة بعد تفاعلها مع الحياة ، وهذا هو السر فى عظمته إذا ما قورن بلوقريطيوس على سبيل المثال . ففلسفة دانتى جزء من حياته وركن أساسى فى عالمه الشعرى . واعلنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إنها بمثابة المحور الذى تدور حوله « الكوميديا الإلهية ».

ويلتف حول هذا المحور مستويات عديدة عاطفية ووجدانية ورمزية وكلها متداخلة فى الهيكل العام للقصيدة . ويتصل بها كلها الكثير من الفعال والأحداث ، يحدها إطارات وأنظمة فلكية قد ساعدت دانتى على تجسيم فكرته عن الجحيم والمطهر والفردوس . وفى كل ذلك لا نجد دانتى يحلل المشاعر كما فعل شكسبير فى كوميدياته ومأساواته بل إنه يبذل جهوداً جبارة لإيجاد الترابط بين المشاعر المختلفة العديدة . ولهذا يصعب على القارىء فهم « الجحيم » على وجهه الصحيح دون الإلمام بالمطهر والفردوس بما فيهما من شخوص وأحداث . إن ما نحس به من نفور وكآبة وعبوس فى قراءة « الجحيم » يكمله إحساس آخر بالجمال وبالشفافية الروحية فى الفردوس . هذا بالإضافة إلى التركيب الهرمى الكبير القائم على مدارج المحسوسات والمعقولات والروحانيات .

* * *

إليوت والقيمة الاجتماعية للشعر :

للشعر بوجه عام وظائف اجتماعية كبيرة قد قام بها منذ العهود القديمة : فكثيراً ما تغنى به القوم فى عمليات السحر وشفاء المرضى ودحض أساليب الحسد

والشر . وفى ظل المدنيات القديمة كان الشعر جزءاً لا يتجزأ من الديانة والمعتقدات المتصلة بها والطقوس التى مارسها القدماء . ثم تلى ذلك ظهور الملاحم العظيمة كالأودسا والإلياذة لهوميروس ، والمأساوات الإغريقية التى أثرت فى الشعر المسرحى قروناً عديدة ، وكذلك شعر الرعاة[١] وشعر الأغانى[٢] وغيرها من الأنواع العديدة للأشعار التى قيلت فى مناسبات اجتماعية شتى ، كما أنها تشيد بمواقف معينة قد خلدها التاريخ .

أما الشعر التعليمى[٣] فلقد انحصر فى الأشعار ذات المغزى الأخلاقى . ويدخل فى نطاق هذا النوع من الشعر أصول الهجاء وأغراضه الاجتماعية ثم السخرية التى اختصت بها الملهاة . ويضيف إليوت إلى ذلك الكناية ذات المغزى الاجتماعى العميق الذى تعرضه بطريقة غير مباشرة فتغلف الحقيقية فى ثوب أقرب ما يكون إلى الخيال . هذا إلى ما للشعر من أهداف اجتماعية أخرى الغرض منها الإصلاح والتطوير والبناء . وقد تبنى هذا الاتجاه الشاعر الرومانسى شيللى .

ويضيف إليوت إلى ذلك قيمة الشعر فى جلب البهجة والسرور والمتعة التى نحس بها إزاء العمل الفنى الأصيل ، هذا إلى ما نستخلصه من خبرات وما نشعر به من أحاسيس مرهفة أراد الشاعر أن ينقلها إلينا من خلال أسلوبه وبيانه وصوره الشعرية . وفى هذا كله إثراء لمداركنا ، وإرهاف لحواسنا ، وإشباع لعواطفنا .

وفى ثنايا هذه التيارات كلها تتضح قيمة الشعر وتتبلور مفاهيمه الاجتماعية . فهو الأداة الصادقة التى تعبر فى أمانة عن مبتغيات القوم وأمانيهم ، ومشكلاتهم التى تقتضيها التغيرات الاجتماعية والمادية العديدة على مر الأزمنة والعصور

---

(١) Pastoral Poetry.
(٢) Lyric Poetry.
(٣) Didactic Poetry.

المتلاحقة . ومكانة الشعراء فى رأى إليوت هى الطليعة بل إنه يذهب إلى مدى أبعد من ذلك ويقول إن الشعراء على مر الأيام وكرها قد سبقوا الأزمنة التى عاشوا فيها والأجيال التى عاصرتهم بفضل آرائهم السديدة ، وفكرهم الثاقب ، وبصيرتهم النفاذة إلى أعماق الأمور وبواطن الأحداث .

وتتبلور قيمة الشعر أيضاً فى إحياء التراث الماضى ، وبعث الثقافات التليدة ، وإنماء الاتجاهات القويمة التى طواها الزمن . فمرآته تعكس هذه الصور برمتها ، وعلى لوحاته تنقش تطورات الشعوب والأجيال ، فهو السجل الخالد للبشرية جمعاء . ولعل شعر شكسبير يبين لنا ما يعنيه إليوت ، فهو لا يختص بأمة بمفردها ، ولا بأدب أو بفن خاص ، إنه الصفحة اللألاءة التى تعبر عن الإنسانية كلها بآمالها وأوجاعها ، وبمطامعها وآمالها العريضة .

أما عن الأثر الاجتماعى للشعر فيرى إليوت أنه من الصعب تحديده إذ أنه أثر غير مباشر ، ذلك أنه ينعكس على ميادين مختلفة يصعب تحديدها . وعلى أية حال فإننا نلحظ دائماً وجود تجاوب واضح بين الشعر والثقافة القومية وبينه وبين المجتمع المتكامل ، وفى هذا التبادل إثراء ، وفيه نفع ونماء ، لا لفرد معين بل للأمة جمعاء . وقد يمتد هذا الأثر أو ذلك التجاوب ليخرج عن نطاق المجتمع الذى وجد فيه لون معين من الشعر ليشمل العالم بأسره فى حالات الروائع الفنية العظيمة . وهذا هو ما يعنيه إليوت بالقيمة الاجتماعية للشعر .

* * *

إليوت والشعر الميتافيزيقى :

فى مقال لإليوت فى مجلة « ألسنر »[1] أى المستمع فى عددها الثانى والستين الصادر بلندن فى مارس سنة ١٩٣٠ يعرف لنا الشعر الميتافيزيقى بأنه الوجدان الصادق المعبر عن الفكرة العميقة ، به تتطابق الفكرة مع الخبرة الوجدانية فى

---

(١) "The Listener".

التعبير الكلى عن مظاهر « الحقيقة » . والشعر الميتافيزيقى الذى ازدهر فى انجلترا فى القرن السابع عشر لم يهتم بالمشكلات الفلسفية كالوجود والخير والحق بقدر اهتمامه بالمشكلات النفسية والعاطفية للإنسان . ولقد نوّه إلى هذا الاتجاه من قبل البروفسور جريرسون الذى أشاد إليوت فى أكثر من مناسبة بفضله الكبير فى إرساء معالم هذا اللون من الشعر . فلقد رأى جريرسون أن الشعر الميتافيزيقى فى نشأته قد اختص بما أطلق عليه اسم « دراما الوجود » وحقائق الكون . ويتمثل ذلك فى إنتاج الشعراء الفلاسفة الثلاث وهم لوقريطيوس ودانتى وجيته الذين أفرد لهم جورج سانتيانا دراسة خاصة ممتعة . وهؤلاء الشعراء قد عبروا عن « المعرفة » فى شتى مراحلها . وهذا مما يدل على أن للشعر القدرة على التعبير عن المشكلات الفلسفية بالإضافة إلى تعرضه للخبرات البسيطة التى تتصل بسطحية هذه الحياة من حزن وفرح ، وألم ولذة ، وحب وكراهية ..

ولقد أسس المدرسة الميتافيزيقية فى الشعر الإنجليزى الشاعر جون دون (١٥٧٢ — ١٦٣١) وانضم إليه آخرون مثل جورج هيربرت (١٥٩٣ — ١٦٣٣) وأندرو مارفيل (١٦٢١ — ١٦٧٨) وهنرى فون (١٦٢١ — ١٦٩٥). وقد اقتصرت مباحث هذه المدرسة على المشكلات الدينية والعاطفية والصراع بين المادة والروح .

ويتميز الشعر الميتافيزيقى لهذه المدرسة بوجه عام بفكرة الصراع بين مطالب الجسد وميل الروح إلى الحرية والانطلاق والتخلص من أدرانه وبرائنه ، وبالخوف من الموت والعقاب ، وبتجسيم فكرة الشر التى كانت ماثلة أمام غالبية هؤلاء الشعراء ، ووجود الرذيلة التى كانت تلاحقهم وتكدر صفوهم . وقد انعكست هذه الاتجاهات برمتها على أشعارهم فجاءت لنا حزينة محملة بآيات العذاب والآلام بل التبرم أحياناً بحقيقة الوجود ذاتها .

والحب فى نظرهم عذرى فى منبته ، سموى فى أصله ونشأته ، متكامل فى مضمونه . فها هو جون دون على سبيل المثال يطالعنا فى قصيدة أطلق عليها اسم

« الذكرى السنوية »[١] بقوله إنه هو ومحبوبته يكونان عالماً كاملاً لا ينقصه شيء ، أما العالم الذى نعيش فيه فهو ظل بل وخداع لعالمهما الحقيقى المتكامل . وأندرو مارفيل فى قصيدته عن « تعريف الحب »[٢] يذهب إلى القول إنه وخليلته قد احتلا قطبى العالم فهما بذلك يتحكمان فى دوران الأرض بل وفى مستقبل الكون الذى يتوقف إلى حد بعيد على عالم الحب المترامى الأطراف والذى يحده القطب الشمالى حيث يوجد الشاعر والقطب الجنوبى حيث تعيش محبوبته ، وفى تعانقهما تعانق لعالم الحب بأسره .

ولما جاء جون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) لم ترق فى نفسه هذه المدرسة ، واتهم جون دون مؤسسها بأنه قد حير عقول العذارى بمناقشاته وفلسفته بدلاً من أن يستحوذ على قلوبهن بالكلمة الرقيقة ، والحس المرهف ، والعاطفة الفياضة . إلا أن الحملة القوية التى وجهت إلى هذه المدرسة فى القرن الثامن عشر قد قادها الناقد الإنجليزى المعروف الدكتور جونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) الذى بنى اتهامه على أن هؤلاء الشعراء قد تسابقوا فى الجرى وراء كل ما هو مستحدث مع أن الجدة واضحة للعيان وعلى مرأى النظر فى حياتنا اليومية العادية . كما أن اتجاهاتهم كانت تحليلية ولهذا فإنهم لم يتمكنوا من جمعها فى محيط واحد. لكن الحقيقة تنافى هذه الاتهامات فلقد تمكن شعراء هذه المدرسة من إيجاد الصلة والترابط بين المرئيات . وذهب إليوت فى رده على هذه الاتهامات إلى القول بأن الدكتور جونسون قد أبرز فى اتهاماته لهذه المدرسة نفس الأسباب التى يستحقون عليها المديح والثناء . فلقد جمعوا المرئيات المتشابهة فى دائرة واحدة، وفى ذلك إخصاب وإثراء للصورة الشعرية ، وإبراز لأوجه الشبه والتعارض فى عالمى الفكر والحس . فى صورهم الخلابة فطنة ، وفى معانيهم أغوار عميقة ، وفى تعبيراتهم قوة وذكاء .

---

(١) "The Anniversarie"
(٢) "The Definition of Love".

ومن هنا عارض إليوت معارضة شديدة الاتجاه القائل بأن هذه المدرسة تقف بمفردها بعيدة عن التيار العام للأدب الإنجليزى ، واعتبر هذه المدرسة امتداداً للعصر السالف وهو العصر الإليزابيثى ونمواً طبيعياً لذلك العصر . ويتضح لنا هذا النمو فى إحساسهم بالفكرة أو فى مزجهم الفكرة بالإحساس ؛ فالفكرة بالنسبة لهم تشتمل على خبرة كاملة من شأنها أن تغير من مشاعرهم . وقد تتنافر الخبرات وتتباعد بالنسبة للشخص العادى ، لكنها تكون فى ذهن الشاعر كليات جديدة تتوارد فى خاطره توارد الظمآن إلى الينبوع الذى يتفجر ماء عذباً . وهذا هو الحال فى شعراء هذه المدرسة فى اتساع خبراتهم وتنوعها وتشعبها وفى عمقها وإصالتها .

ويضيف إليوت إلى ما تقدم ما نلحظه فى أواخر عهدنا بهذه المدرسة وقبل بزوغ فجر القرن الثامن عشر من انفصام فى عرى الوحدة التى مزجت الفكرة بالإحساس ، وهذا الانفصال لم نفق منه فى محيط الفكر والأدب حتى يومنا هذا على حد تعبيره . ومما ساعد على انفراج شق الرحى ما تركه كل من ملتون ودرايدن من آثار وخيمة فى هذا المضمار .

فى الوقت الذى أصبحت فيه اللغة أكثر طوعاً وصياغة فى يد الشاعر ، تبلورت المشاعر ، ووهنت الأحاسيس . فلقد كان الشعراء الميتافيزيقيون أكثر نضجاً من شعراء القرن الثامن عشر ، ولهذا أمكنهم التعبير فى أصالة واضحة عن مناطق الفكر والإحساس والجمع بينهما ، فكان لشعرهم صدى عميق فى نفوس كتاب القرن العشرين . هذا إلى أن الصورة الشعرية الميتافيزيقية لشعراء القرن السابع عشر كانت أقدر من غيرها فى التعبير عن تعقيد الحياة وتشعب المدنية ، فرجع شعراء العصر الحاضر بمخيلاتهم إلى هذا الينبوع الحى ليسد غلتهم ، ويفصح عما تجيش به صدورهم ، وما يحسون به فى أعماق نفوسهم .